عون الولي الحميد بشرح كتاب التوحيد
للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى

الشارح..

الشيخ عصام بن عبد المنعم المري حفظه الله

٥٨-باب قول الله تعالى:

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

قال ابن القيم في الآية الأولى: فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته. ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله. وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح. وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار. وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله، وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء. ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا؛ فمستقل ومستكثر. وفتش نفسك، هل أنت سالم.

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة   وإلا فإني لا إخالك ناجيا.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

الشرح

هذا الباب له تعلق بالباب الذي قبل ذلك الباب وهو باب ما جاء في اللو وسبق الكلام على آية آل عمران ، والمؤلف هنا رحمه الله تعالى يكمل الكلام على هذه الآية الكريمة في قصة غزوة أحد وما حصل على المسلمين ، وسبق الكلام على بعض المباحث المتعلقة بمعنى لو وما فيها من الاعتراض على القدر والاعتراض على الشرع ،

وفي هذا المبحث موضوع مهم جدا لكل مسلم وهو موضوع التحذير من سوء الظن بالله والحث على حسن الظن بالله .

وسوء الظن بالله فيه اعتراض على القدر وطعن في ربوبية الله جل وعلا وفي أسمائه وصفاته .

وقد يقال ما دخل سوء الظن بالله في حياة الناس ؟

فيقال لهم كما قال المؤلف: فتش نفسك وفتش من شئت .

وقد انتشر بين الناس كلمات يروجونها فيما بينهم فيها سوء ظن بالله سبحانه وتعالى وهي كلمات قبيحة ، وقد تخفى بعض هذه الكلمات على بعض الناس ، يقولون : يعطي الحلق للذي بلا أذن ، يعطي الحلق للتي بلا آذان ومعنى هذا طعن في حكمة الله وفي أفعاله سبحانه وتعالى ، يعني للتي لا استحق ، فهذا اعتراض على الخالق الحكيم العليم الخبير ، يعترض عليه الإنسان المسكين الفقير الضعيف ، يعترض على حكمه ، يعترض على قدره طعن في مقتضى معاني أسمائه وصفاته ، طعن في قدره ، طعن في تصرفه جل وعلا في ملكه ، وهذا كثير ومنتشر بين الناس ، اعتراض على الرب جل وعلا في أحكامه القدرية وبعضهم يعترض على أحكامه الشرعية ، كما حدث من المعري عندما يعترض على حكم قطع اليد إذا سرقت في ربع دينار يقول :

يد بخمس مئين عسجداً وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

وديت: يعني ديتها ، يقول هذا التائه المسكين ،

تناقض ما لنا إلا السكوت له نعوذ بالله مولانا من النــار

فقيل له:

قل للمعري عار أيما عــار جهل الفتى وهو عن ثوب التقى عار

عار عليك أيها المعري وأنت جاهل ، جاهل بأحكام الرب جل وعلا جاهل بالشريعة وليس عندك تقى ، تعترض على أحكام الرب جل وعلا الشرعية وعلى أفعاله جل وعلا .

ومن الكلمات الرائجة عند الناس في هذا الباب الخطير قولهم: رزق الهبل على المجانين ، وهذا طعن في تقادير الله جل وعلا ، طعن في تقديره وأنه جل وعلا الرزاق ذو القوة المتين يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، **(إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين)** ، هل أحد من الناس عاقل أو غير عاقل يستطيع أن يرزق أحدا؟

الملك كله لله سبحانه وتعالى والأمر كله له ، وبيده الأمر وله الحكم سبحانه وتعالى ، **(تبارك الذي بيده الملك)** بيده الملك ، كيف تقول رزق الهبل

على المجانين ، هل يوجد أحد من العقلاء يستطيع أن يرزق أحدا فضلا عن الهبل أو المجانين

ومن هذه الكلمات : أبكي على الزمان اللي خلى القصير شمعدان ، أبكي على الزمان ، وهذا فيه سب للدهر ، لأن الله جل وعلا هو الذي خلق الليل والنهار ويقلب الليل والنهار ، فمن سب الليل والنهار الذي هو الزمان فقد سب خالق الزمان ، وفيه سب للقدر ، فربنا جل وعلا له الحكمة البالغة ، اقتضت حكمته أن يكون هذا كذا وذاك كذا وأن يفضل بعض الناس على بعض في الرزق وفي العقل وفي المكانة ، وفي غير ذلك ، فهذا فيه اعتراض على قدر الله جل وعلا وعلى أفعاله ،

ويذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى كلمة جميلة ، ذكرها ابن مفلح في الآداب الشرعية في المجلد الثاني صفحة٢٩٠ يقول ابن الجوزي: قال بعض الحكماء: **من لم يحترز بعقله من عقله هلك بعقله** ، يعني لو أنت مشيت بالعقل في كل شيء العقل سيدمرك ، ثم يفسرها يقول: وهذا كلام في غاية الحسن ، لماذا هذه الكلمة كلمة جميلة؟ يقول: فإنا إذا قلنا بالعقل: هو حكيم ، الرب جل وعلا حكيم ، قال: لا شك في ذلك ، يعني أي عقل فعلا ـ ليس عقلا ضالا ـ يقول ويوقن ويعترف بحكمة الرب الجليل سبحانه وتعالى ، لأن الكون الذي تراه أمامك يدل على الحكمة والإحكام ، وهذا موضوع تكلمنا عليه من قبل باستفاضة ، الكون الذي تراه الآن في غاية الحكمة والإحكام .

إذا قلت للعقل ، هل الله جل وعلا حكيم؟ يقول نعم لا شك في ذلك .

ثم يقول: العقل يقول رأيت في الكون عجائب أفعاله المحكمة ، تطلع الشمس من مكان وتغرب في مكان ، لا تتجاوزه في أيام محدودة في الشهر في السنة ،القمر كذلك والنجوم والفصول ، إلى غير ذلك ، لأني قد رأيت عجائب أفعاله المحكمة فعلمت أنه حكيم ، فإذا رأيت يعني العقل رأى ما ظاهره ينافي الحكمة نسبت العجز إليّ ، يعني قلت لا ، أنا الذي لم أفهم ، فتوجد حكمة غائبة عني ، لأن المقدمة الأولى واضحة ، فالله جل وعلا حكيم وأفعاله جل وعلا في غاية الحكمة ، فإذا أثبت شيئا تقول كيف هذا الشيء موجود في الشريعة كيف هذا الشيء موجود في القدر ، لا ، ترجع وتقول أنا العجز في ذهني ولست قادرا أن أفهم على الوجه الصحيح ، نسبت العجز إليّ

، ولو لم يكن في ذلك إلا أن المراد تسليم العقول لما ينافيها ، يعني حتى لو أنت لم تكن قادرا على الفهم ، يقول: فذلك عبادة العقول ، يعني العقل له عبادة ، من عبادة العقل أنه إذا عجز عن فهم شيء يسلم ، فليس كل شيء يستطيع أن يصل إليه ، فليس كل شيء يستطيع أن يصل إليه العقل ، فإذا عجز عن الوصول لشيء يسلم لحكمة الرب الجليل ، وهذه عبادة العقل ، فالعقل لا يستطيع أن يفسر كنه نفسه ، لا يستطيع عقلك أن يفسر لك كيف يعمل ، لو أخذنا عقل عبقري ومتميز في فن من الفنون أو في عدة فنون في الفيزياء في الكيمياء في القراءات في الحديث وقلنا نريد أن نستفيد من عقل هذا العبقري بعد موته أو في حياته فنأخذ هذا العقل ونفتحه ، نفتح العقل ، أين العلم الذي فيه أين الأحاديث أين القراءات أين الفيزياء أين الكيمياء أين قواميس اللغة العربية التي يحفظها ، ماذا سنجد داخل العقل؟ أين هذه المعلومات ، كيف يفكر هذا العقل وكيف يعمل وكيف يخزن هذه المعلومات في سنين عددا ، وكيف يخزن في المستقبل الذي لم يأت ويرتب أموره وأين يضع المعلومات الشرعية والمعلومات العصرية والحسابات والذاكرة ، لا نجد شيئا عندما نفتح العقل ، سبحان الله ، إذا العقل نفسه يعجز عن أن يفسر نفسه فكيف يعترض هذا العقل المسكين على أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وخالق الخلق أجمعين ،

إذًا إذا حصل عنده شيء ظاهره أنه لا يفهمه فينسب العجز إليه ولا يطعن في حكمة الله سبحانه وتعالى ، هذا أيها الأخوة مسألة لا بد أن يضعها كل إنسان في نفسه

يقول ابن الجوزي: وصار هذا كما خفي عن موسى حكمة فعل الخضر ، موسى نبي وبشر ويمشي مع الخضر وقيل إن الخضر نبي وقيل إنه صالح ومن البشر ، ويفعل الخضر أفعالا تخفى على موسى حكمتها ، فيعترض موسى ، كل فعل يفعله الخضر يعترض عليه ، لماذا يعترض عليه؟ لاختلاف الفهم واختلاف العلوم ، وموسى لم يصبر ، وبين له الخضر أنه ما يفعل هذا عن أمره وإنما يفعله عن أمر الله جل وعلا وفارقه ، فهذا بشر يعترض على بشر في شيء يفعله على وجه الصواب وهو لا يراه صوابا فحصل هذا الاعتراض لاختلاف العلوم .

يقول: وقد يخفى على العامي ما يفعله الملوك من الأوامر أو النواهي .

يقول: فقد قال المتنبي:

يدق على الأفكار ما أنت فاعل ، يعني قد تفعل الفعل وكثير من الناس يتحيرون فيه ،

ثم قال: ذكر كلاما **لابن عقيل الحنبلي** في كتابه الفنون ، وهذا الكلام مصادق لما نحن فيه ، يقول ابن عقيل في كتابه الفنون الذي هو ثلاثمائة مجلدا ، يقول : الواحد من العوام إذا رأى مراكب مقلدة ، بالذهب والفضة ، يعني رأى سيارة فخمة مزينة وادارا مشيدة ، دارا كبيرة ، قصرا ، مملوءة بالخدم والزينة ، رأى رجلا عنده سيارة وعنده قصر مليء بالخدم والزينة ، يؤتى فيه بأطايب الطعام صباحا ومساء ماذا يقول هذا العامي قال: انظروا ما أعطاهم الله مع سوء أفعالهم ، يعني انظر هؤلاء ناس عصاة وفسقة ، وقد يكونون كفرة وربنا جل وعلا يعطيهم مع سوء أفعالهم ، ولا يزال يلعنهم ، يلعن هؤلاء الناس ويذم معطيهم .
يقول: ودارا مشيدة مملوءة بالخدم والزينة قال انظروا ما أعطاهم الله مع سوء أفعالهم ولا يزال يلعنهم ويذم معطيهم حتى يقول فلان يصلي الجماعات والجمع ولا يؤذي الذر ، يعني لا يؤذي أحدا حتى النمل لا يؤذيه ، يعني يريد أن يعترض فيقول لك انظر هؤلاء ربنا أعطاهم هذه الأموال وفلان هذا الذي هو مواظب على الجمع والجماعات ولا يؤذي إنسانا ، حتى النملة ما يؤذيها

ثم قال: ويظهر الإعجاب ، كأنه ينطق ، يعني كأن حاله يقول لو كانت الشرائع هذه حقيقة لكان الأمر بخلاف ما نرى ، يعني لسان حاله يقول هكذا ، يقول أكيد هذا الكلام ليس صحيحا ، لو كانت الشرائع حقا لكان الصالح غنيا والفاسق فقيرا ، يعني يقول لو أردت الحق يكون أهل الصلاح هم الأغنياء ، الذين يصلون ويحضرون الجمع والجماعات هم المفترض أن يكونوا أغنياء ، والفاسق الذي يفعل المعاصي المفروض أن يكون فقيرا ، ونسي هذا أن الدنيا لم يجعلها الله جل وعلا جزاء لمحسن ، فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن إذا لم يكن فيها معاش لظالم ، وقد قيل :

لو رضي بالدنيا جزاء لمحسن ... إذا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة ... وشبعت فيها بطون البهائم

إذا ربنا جل وعلا لم يرض أن تكون الدنيا جزاء لمحسن ، فأعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، والدنيا لها أسباب من سعى إليها نالها ، فيقول هذا المتكلم لو كان الأمر على الصواب لكان الصالح غنيا والفاسق فقيرا .

ولما عمر دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ورآه نائما على حصير فقال: فارس والروم ينامون على كذا وكذا ؟ فقال له: «**ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أما تحب أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»

قال ابن الجوزي: ودخلت على صدقة بن حسين الحداد ، وكان فقيها ، وعليه جرب ، يعني هذا الرجل فقيه لكن ابتلي بالجرب . فقال: ينبغي أن يكون هذا على جمل لا علي ، يعني هذا الرجل الفقيه صدقة بن حسين الحداد كان عنده اعتراض على القدر .

ثم يقول ابن الجوزي: وكثير من العوام إذا رأى رجلا صالحا مؤذى ، يعني رجلا صالحا ابتلي بمرض أو بمشكلة أو بمصيبة أو غير ذلك يقولون هذا ما يستحق أو هذا ابن حلال ، سبحان الله ، **(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)** وهو سبحانه وتعالى أعلم بالشاكرين .

يقول ابن الجوزي: كأن الله ظلمه أو كأنه لا يستحق ، قدحا في القدر يقدح في تقدير الله جل وعلا وكتابته الأزلية وأفعاله ومشيئته ، قدحا في القدر و اعتراضا على الخالق جل وعلا في التحكم عليه ، يريد أن يتحكم على أفعال الله جل وعلا . لو ترك الأمر لأفهام الناس لفسدت السماوات والأرض ، فكيف لهذا العقل الضعيف المسكين العاجز أن يعترض على الله جل وعلا وأن يظن به جل وعلا ظن السوء ، وربنا جل وعلا أولى بالجميل ، وهو أولى بكل جميل ، لأنه جل وعلا له الأسماء الحسنى البالغة في الحسن غايتها وله المثل الأعلى ، يعني الوصف الأعلى من كل شيء ، من كل كمال فلا يليق بالعبد أن يظن بالله جل وعلا ظن السوء .

فهذا الباب يتكلم على هذه المسألة العظيمة ، الذي يقول المؤلف في آخرها عما نقله عن ابن القيم: فتش نفسك ، وفتش غيرك ، ستجد اعتراضا

على القدر ، سواء تكلم بلسانه أو بحاله ، وقد أرشدنا الرسول الكريم ﷺ إلى حسن الظن بالله سبحانه وتعالى ، وحسن الظن بالله واجب من واجبات التوحيد ، فيجب عليك أن تحسن الظن بالله جل وعلا دائما ، إذا كنت خارجا في تجارة تحسن الظن بالله ، إذا كنت خارجا لامتحان تحسن الظن بالله ، إذا كنت ذاهبا إلى زواج مثلا ومقبلا على زواج تحسن الظن بالله ، مسافرا لعمل أو لعمرة أو لحج أو لغير ذلك تحسن الظن بالله ، لأنه قد جاء في الصحيحين: **«أنا عند ظن عبدي بي»** وفي خارج الصحيحين في مسند أحمد **«فليظن بي ما شاء»** ، فإن ظننت بالله جل وعلا خيرا تجد الخير وإلا فلا ، فعندما تدعو الله جل وعلا تتيقن أنه سيجيب دعاءك ، وعندما تستغفر الله جل وعلا تتيقن أن الله جل وعلا سيغفر لك ، وعندما تتوب إلى الله جل وعلا تعلم أن الله جل وعلا سيتوب عليك ، لذلك جاء في الحديث الذي في صحيح مسلم: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»** ، وقد كان بعض السلف عند الموت يطلب ممن حوله أن يحدثوه بالأحاديث التي فيها الرجاء ، وما عند الله جل وعلا مما أعده للأبرار وكان بعضهم يطلب من إخوانه أن يحدثوه بأحسن ما فعل ، يعني يقول ما شاء الله يا فلان أنت إنسان مسارع للخيرات وموفق في الجماعات وتالٍ لكتاب الله وقادم على رب كريم جواد يعفو ويغفر ويصفح ، أبشر يا فلان ، حتى يموت الشخص وهو يحسن الظن بربه جل وعلا لأن الله جل وعلا يقول في الحديث القدسي **«أنا عند ظن عبدي بي»** وفي رواية المسند عند أحمد وغيره **«فليظن بي ما شاء»**

فلا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل

يعني أنت تظن بنفسك الظن الجميل وتظن ظن السوء بالله سبحانه وتعالى ، من أولى بالجميل ، الذي وهب الجمال ورحمته وسعت كل شيء ويجود ويعطي ، كل يوم هو في شأن ، يعطي هذا ويرزق هذا ويفرج كرب هذا ، إلى غير ذلك ،فالله جل وعلا هو أولى بالجميل . أما صاحب النفس الأمارة بالسوء الخداعة التي جبلت على الظلم والجهل والطغيان **(وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)** هذا يظن بنفسه الظن الجميل ويظن بربه ظن السوء؟!! ،

فهذا الباب من الأهمية بمكان في حياة الناس جميعا .

المؤلف رحمه الله تعالى ذكر في هذا الباب دليلين ونقل كلاما من زاد المعاد لابن القيم اختصره في معنى سوء الظن أو في أمثلة على سوء الظن .

الدليل الأول قول الله جل وعلا **(يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)** في سورة آل عمران **(ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم)** الذين هم المنافقون **(يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء)** يعني نحن ليس بيدنا شيء ، لا الأمر القدري ولا الأمر الشرعي ، لم نشاور في الخروج ، المنافقون يقولون نحن لم نرض بالخروج ، قلنا لكم اجلسوا في المدينة لا تخرجوا للمشركين فأنتم خرجتم وتسببتم في قتل من قُتل وليس لنا من الأمر شيء مما حصل قدرا من قتل من قُتل من إخواننا ، ليس لنا من الأمر شيء مما وعدنا من النصرة ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يعني ظن أهل الجاهلية ، وهذا الظن ظن باطل مبني على الجهل ، ومبني على سوء الظن بالله سبحانه وتعالى وأنهم ظنوا أن الله جل وعلا يمكن للكفار على المسلمين ويدير الدائرة على أهل الإسلام وهذا ظن السوء ، وأيضا من ظنهم ظن السوء أن هذا الذي حصل ليس فيه حكمة . والحكمة ظاهرة فيه أنها للابتلاء ، كما قال جل وعلا ففيه التمحيص **(وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص** ما في قلوبكم) ابتلاء ما في الصدور من الإيمان والنفاق والتمحيص والتطهير والتمييز ، تمييز الطيب من الخبيث والمؤمن من المنافق ، ففيه حكمة عظيمة .
وأهل العلم يقولون بأن الإنسان لو ترك دائما في نعمة وفي عافية لم يحصل هذا التمحيص ويركن الإنسان للغفلة وقد يحصل عند الإنسان نوع من العجب والكبر ، دائما في عافية ودائما في خير ودائما في غنى ودائما في صحة ، قد يغتر الإنسان بنفسه وبعمله ، لكن يقولون الابتلاء هذا مثل الدواء الكريه ، الإنسان يأخذ الدواء الكريه للعلاج ، وليصلح شيئا في داخله وفي نفسه ، الابتلاء بالمصائب بالأمراض بالفتن الابتلاء بالأقارب أو الإخوان أو الجيران هذا فيه فائدة **(ليميز الله الخبيث من الطيب)** لكن لو أن الإنسان ظل هكذا بلا ابتلاء يحصل عنده نوع من الغفلة والعجب والغرور والكبرياء ،
فالابتلاء يكون لتمحيص ما في الصدور وابتلاء ما في النفوس وتمييز ما في النفوس من الإيمان أو النفاق ، المنافقون لا يعرفون هذا ، يقولون إنما حصل هذا بدون حكمة . هكذا بمجرد المشيئة ، وهذا طعن في حكمة الله جل وعلا لأن الله جل وعلا كل أفعاله لحكمة عظيمة جليلة سبحانه وتعالى ، ورد

عليهم بقوله تعالى **(قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك)** إلى أن قال **(قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)** فلو كان العبد على فراشه وقدر له أن يموت في مكان آخر لخرج إليه أو لسافر إليه فمات فيه . قال تعالى **(لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)** يعني إلى مصارعهم ، خرجوا إلى مصارعهم وأماكن موتهم .

والدليل الثاني الذي ذكره المؤلف قوله تعالى في سورة الفتح **(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما. ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما. ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء)** الظانين بالله ظن السوء ، ما هو ظن السوء في هذه السورة ؟ مذكور في نفس السورة وهي سورة الفتح في الآية الثانية عشرة ، قال الله جل وعلا **(بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا)** ظنوا أن المسلمين لن يرجعوا أبدا إلى أهليهم وإلى مدينتهم وسيحصل عليهم الفناء في هذا الخروج إلى الحديبية ، قصة الحديبية وفتح صلح الحديبية سمي فتحا لما حصل فيه من الفتح ، المسلمون خرجوا وعددهم ألف وأربعمائة رجل ، ورجعوا ، وبعد سنتين جاءوا إلى مكة وفتحوها وعددهم عشرة آلاف مقاتل ، فلذلك سمي فتحا ، من أربعمائة وألف رجل إلى عشرة آلاف مقاتل ، ما الذي حصل؟ لماذا سمي فتحا؟ لأنه بهذا الصلح الذي عقدوه مع المشركين هدأ الناس وحصلت لهم الهدنة فبدأ الناس يتعرفون على الإسلام ، ويأتون يسألون عن الإسلام ويسألون المسلمين ، فدخل الناس في دين الله أفواجا ، فالذي يريد أن يدخل الإسلام يدخل وصار عند الناس أمن وأمان ، فبعد سنتين دخل المسلمون مكة في عشرة آلاف مقاتل فلذلك كان هذا فتحا مبينا ، فالله جل وعلا خيب ظن هؤلاء وقال **(ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما. ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء)** ظنوا أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا ، فحصل

هذا الفتح العظيم ودخل المسلمون مكة وفتح الله جل وعلا مكة بهذا الفتح المبين ودخل الناس في دين الله أفواجا .

فالمؤلف رحمه الله تعالى ينقل المراد بهذا الظن السيء الذي ظنه المنافقون والمشركون ينقله المؤلف من كلام ابن القيم في زاد المعاد مختصرا جدا ، وقد ذكره ابن القيم في الفوائد والحكم المستنبطة من غزوة أحد ، في زاد المعاد في المجلد الثالث من صفحة٢٢٨ إلى صفحة٢٣٥ أو٢٣٦ .

وفي نستختي من الزاد أن هذا الكلام سمعناه وهو يقرأ على سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى من زاد المعاد في تاريخ عشرين من ذي القعدة في عام١٤١٦هـ قال الشيخ ابن باز في هذا الموطن: من هنا نقل صاحب كتاب التوحيد في باب الرد على منكري القدر ، وهذا انتقال ذهن من الشيخ وإنما هو باب **(يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)** وهو هذا الباب .

فالقصد من هذا أن هذا الكلام منقول من ابن القيم باختصار ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الآية الأولى « **فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل** » يعني يذهب الدين الإسلامي ويذهب التوحيد ، هذا تفسير قاله الإمام قتادة والسدي ، «**وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته**» هذا تفسير ابن عباس ، أن ظن الجاهلية أنه التكذيب بالقدر ، الذي حصل على المسلمين من القتل ومن عدم النصرة أو عدم الانتصار لأنهم تركوا أمر النبي ﷺ عندما قال لهم: لا تنزلوا من على الجبل سواء رأيتمونا انتصرنا أو هُزمنا لا تنزلوا من على الجبل أبدا ، فلما رأى بعض المسلمين ممن هم على الجبل أن المسلمين هزموا الكفار قالوا لماذا نبقى هنا على الجبل بل ننزل ونشارك إخواننا ، فلما نزلوا رآهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل نزلوا من على الجبل فأحاطوا بهم من خلفهم وأحاطوهم بالقتل من الخلف ومن الأمام وجعلوا المسلمين داخل الدائرة فحصلت الهزيمة ، فيقولون «**فسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته**» .

قال رحمه الله تعالى: فسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته ، وهذا مأخوذ من قول ابن عباس أن ظن الجاهلية المقصود به التكذيب بالقدر ، فهذا ظن أهل الجاهلية ، ذكره البغوي عنه .

وفسر بإنكار الحكمة ، حكمة الله جل وعلا الحكمة البالغة التي يحمد جل وعلا عليها ، ومن الحكمة الابتلاء والتمييز للمؤمنين من المنافقين ، وإنكار القدر ، في قولهم أنهم لو لم يخرجوا ما ماتوا وما قتلوا ، لو لم يخرجوا ، وهذا كلام باطل ، الذي يقول هذا لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت ولو كان في بروج وحصون مشيدة . **«وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهره على الدين كله»** يعني قالوا إن هذا الكلام وعدنا به وهذا لن يكون ، أن هذا الدين سيظهر ويكون هو الغالب على كل الأديان ونحن الآن نقتل في أحد ويؤسر منا سبعون وغير ذلك ، قالوا هذا كلام قيل ولا أساس له ، فهذا ظن الجاهلية ، فالله جل وعلا قد وعد رسوله بذلك والنبي ﷺ رأى المشرق والمغرب ورأى أن ملك أمته سيبلغ ما زوي له منها ﷺ ، والإسلام الآن ولله الحمد والمنة في مشارق الأرض ومغاربها ، وقد بلغ في عصر الصحابة إلى ما بلغ إليه ومن بعدهم من التابعين وتابعي التابعين في التاريخ الإسلامي المعروف أن المسلمين وصلوا إلى شواطئ المغرب إلى المحيط وإلى بلاد الأندلس ودخلوا إلى أوسط فرنسا وبلاد شرق آسيا كالهند وبلاد السند ما وراء النهر وإفريقيا إلى غير ذلك ، فحصل وتم بفضل الله جل وعلا ما وعد الله جل وعلا به نبيه ﷺ وأظهره على الدين كله .

يقول: « **وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح. وإنما كان هذا ظن السوء** » في زاد المعاد تكملة: وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل وظنوا غير الحق لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، لا يليق أن يظن الإنسان بالله جل وعلا أنه يخذل نبيه ويخذل أولياءه وقد قال الله جل وعلا **(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)** قال تعالى **(إن تنصروا الله ينصركم)** هذا وعد صادق لا يتخلف ، ثم يقول ، وهنا اختصار حوالي سطرين: يقول ابن القيم: **وما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه** ، لأنه وعد بالنصر والتمكين ، قال

تعالى **(وإن جندنا لهم الغالبون)** هذا وعد لا يتخلف ، وإن تأخر فترة وزمانا من الأزمنة لكن تأخيره لحكمة بالغة ،

« **فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة** » يعني يجعل الباطل هو المنتصر على الحق دائما ، إدالة مستقرة دائمة «**يضمحل معها الحق فهذا ظن السوء**» لأنه نسبه إلى ما لا يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته ثم قال ابن القيم : فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك ، تأبى أن يستمر علو وانتصار الكافر على المسلم ، قد يكون هذا فترة أو في مكان ،. أو في زمان معين ، لكن حكمة الله جل وعلا تأبى ذلك ، أن يكون هذا الشيء مستمرا أو مستقرا دائما ، وتأبى أن يذل حزبه وجنده ، تأبى حكمة الله جل وعلا أن يذل حزبه وأنصاره وجنده الذين ينصرونه لأن الله وعد قال: **(وإن جندنا لهم الغالبون) (إن تنصروا الله ينصركم)** ، أن يذل حزبه وجنده وأن تكون النصرة المستقرة الظفر الدائم لأعدائه المشركين به ، هذا مستحيل ، وإن كان قد يكون في وقت من الأوقات ،

ثم يقول: « **أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة** » ابن القيم يقول أيضا هي أحب إليه من فواتها فلم يقدرها عبثا ، يعني لما حصل ما حصل على المسلمين في أحد لأنهم خالفوا أمر النبي ﷺ ونزلوا من الجبل ، فإذا تأتي الهزيمة بالمعصية وتأتي الهزيمة بمخالفة الوحي ومخالفة أمر النبي الكريم ﷺ ، فلما حصلت المخالفة منهم ووقعت الهزيمة عليهم وحصل لهم هذا التهذيب والتنقية أخذوا هذا الدرس ، فكان النصر حليفهم بعد ذلك في كل غزواتهم وسرياتهم إلا أيضا ما حصل في غزوة حنين ، **(ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم)** خرجوا من مكة في عدد ضخم ، دخلوها في عشرة آلاف مقاتل وخرجوا إلى حنين قالوا: لن نغلب اليوم من قلة ، فحصل عليهم بعض ما حصل ثم كان لهم النصر بعد ذلك ، **(ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين)** ، فهذه دروس يستفيدها الإنسان ، هذه الهزيمة ليس المقصود منها مجرد الهزيمة ، لا ، المقصود منها أخذ العبرة والعظة والمسلمون بعد ذلك كان النصر حليفهم في كل غزواتهم ومغازيهم ،

يقول: « **أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة** » هذا قول الجبرية ، يقولون يفعل لا لحكمة ، يفعل بدون حكمة لمجرد المشيئة أنه أراد ذلك وشاء ذلك هذا قول الجبرية ،

«فذلك ظن الذين كفروا » يعني هذا الكلام الطعن في حكمة الله في الحقيقة أصله من أفعال الكفار ، **« فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار»**.

ثم يقول: **« وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم»** وإن كان قد لا يتحرك لسانه بهذا لكن حاله يشهد بهذا كما سبق من كلام ابن عقيل ومن كلام ابن الجوزي .

قال **« ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته»** يعني مقتضى حكمته **«وحمده»** سبحانه وتعالى ، فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظن بالله ظن السوء ، الذي يقنط من رحمة الله وييأس من روح الله جل وعلا فقد ظن بالله جل وعلا ظن السوء .

يقول الشيخ: **« فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا »** الإنسان اللبيب ، فالمؤلف ترك كلاما طويلا جدا وأتى بهذا الموضع قال**« فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله، وليستغفره »** كل وقت **« من ظنه بربه ظن السوء »** ثم يقول ابن القيم: وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء ، يظن الإنسان السُّوء والسَّوء بنفسه التي هي مأوى كل شر ومأوى كل سوء ، المركبة على الجهل والظلم ، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين ، ، وأعدل العادلين سبحانه وتعالى ،

ثم يقول: **« ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده »** في النسخة التي معنا **«تعنتا على القدر »** لكن في زاد المعاد: تعتبا ، يعني معاتبة للقدر ، لو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعتبا على القدر ، يعني معاتبة للقدر ، وفي هذه النسخة: **« تعنتا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا »** كما سبق في أول الكلام ، لماذا أعطى فلانا ولم يعطني ، لماذا فلان العاصي الفاسق يجلس في القصور وفي السيارات الفارهة وفي الخدم والحشم وهذا الذي يصلي في الجماعات والجمع ويقرأ القرآن يجلس في كوخ أو غرفة أو لا يجد له مأوى ، يلوم القدر ويعترض على ربه جل وعلا ، ويعاتب ربه سبحانه وتعالى ،

يقول المؤلف **« فمستقل ومستكثر »** مستقل في هذا ومستكثر ، مستقل من سوء الظن أو مستكثر من سوء الظن بالله **« وفتش نفسك »** اجلس مع نفسك هل أنت تحدث نفسك بهذا ، **«هل أنت سالم»** من ذلك ، فيقول المؤلف : **« فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة »** ، إن تنج من هذه الخصلة التي هي

سوء الظن « **تنج من ذي عظيمة** » تنج: هذه مجزومة في جواب الشرط ، تنجو ، مجزومة بحذف الواو « **من ذي عظيمة** » يعني من شر عظيم « **فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا** » يعني لا أظنك ناجيا ،

ثم يختم ابن القيم بعض هذه الفوائد بأبيات جميلة أيضا في زاد المعاد صفحة٢٣٦ يقول فيها رحمه الله تعالى:

فلا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل

ولا تظنن بنفسك قط خيرا وكيف بظالم جان جهول

وقل يا نفس مأوى كل سوء أيرجى الخير من ميت بخيل

أيرجى الخير ممن مآله إلى الموت وهو بخيل ،

وظن بنفسك السوءى تجدها كذاك وخيرها كالمستحيل

وظن بنفسك السوء تجدها: الظن السيء ظنه بنفسك

وما بك من تقى فيها وخير فتلك مواهب الرب الجليل

يعني ما فيك من تقى وخير وصلاح فتلك مواهب الرب الجليل: يعني هذا كله من الله جل وعلا هو الذي منحك إياه وجاد به عليك ،

وليس بها ولا منها ولكن من الرحمن فاشكر للدليل

وليس بها ولا منها ولكن: ما أصابك من نعمة فمن الله ، ما أصابك من حسنة فمن الله سبحانه وتعالى ، ما أصابك من خير وجود وصلاح وتقى فمن الله سبحانه وتعالى ،

فاشكر للدليل: يعني اشكر الدليل الذي دلك على هذا وهو الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ،

فيستفاد من هذا الباب أن الإنسان يحسن الظن بربه سبحانه وتعالى وأن حسن الظن بالله جل وعلا واجب من واجبات التوحيد والإنسان يحذر من سوء الظن بالله جل وعلا سواء عبر عن هذا بلسانه أو بحاله ، والمسائل واضحة .